مطلوب أن : تفتح المصحف لمتابعة الأفكار الرئيسية والأهداف للآيات المقدسة

١ - ٤	سورة القلم : قسم إلهي بقدر سيدنا محمد ﷺ عند الله .
٥ - ١٦	ضلال زعماء قريش، واهتداء أتباع محمد ﷺ .
١٧-٣٣	قصة الذين ورثوا بستان أبيهم ، وعاقبة الكبر ، وأثر انقطاع التربية بين الآباء والأبناء .
٣٤-٤١	مصير المتقين، ودحض مزاعم المشركين، وما أعد الله للفريقين في الآخرة.
٤٢-٤٧	خسارة المشركين يوم الدين، وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ واستدراج الله لهم لمجازاتهم.
٤٨-٥٢	تثبيت سيدنا محمد ﷺ على الحق وذلك لمواجهة كفار قريش .

مقصد السورة:

دفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلّم، وتنزيهه عما يقوله الكافرون،

(مقسماً سبحانه وتعالى بأنه على خُلق عظيم،

وما هو بمجنون،

وإن له على تبليغ رسالة ربه ثواباً عظيماً غير منقوص ولا مقطوع)،

وإبطال افتراءات الذين كفروا وقولهم عنه أنه مجنون.

ومقصدها نجده في الآيات الأربعة الأولى، والآيات الخمسة الأخيرة، والتي تتحدث عن أمر واحد: الذي هو مقصد السورة في الدفاع عن الرسول وعن نعمة الله عليه بالرسالة والقرآن، وتبطل اتهام المكذبين له بالجنون. وباقي السورة (٤٣ آية) تتحدث عن صفات وأخلاق هؤلاء المكذبين السيئة: المفسدة والظالمة. حول الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلّم،

سورة القلم مكية وتسمى أيضا سورة (ن) وقال ابن عباس وقتادة :

من أولها إلى قوله (سنسمه على الخرطوم) مكي ،

وما بعده إلى قوله (لو كانوا يعلمون) مدني ،

وما بعده إلى قوله (يكتبون) مكي ،

وما بعده مدني

والرسول [صلى الله عليه وسلم] ولو أنه نبي ، ولو أنه يتلقى من ربه الوحي ، ولو أنه يتصل بالملأ الأعلى . . هو بشر ، تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة ،

وتلك الحرب التي شنها عليه المشركون ، ويعاني وقعها العنيف الأليم ، هو والحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

وكان [صلى الله عليه وسلم] يسمع والمؤمنون به يسمعون ،

ما كان يتقوله عليه المشركون ، ويتطاولون به على شخصه الكريم ،

(ويقولون : إنه لمجنون) . .

قالها كفار مكة ، أبو جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وغيرهم

ولم تكن هذه إلا واحدة من السخريات الكثيرة ، التي حكاها القرآن في السور الأخرى ؛

والتي كانت توجه إلى شخصه [صلى الله عليه وسلم] وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين !

<u>والسخرية والاستهزاء - مع الضعف والقلة - مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية ، ولو كانت هي نفس رسول .</u>

ومن ثم نرى في السور المكية – مثل سور هذا الجزء - أن الله يسري عن رسول الله، ويثني عليه وعلى المؤمنين . ويبرز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبيها الكريم . وينفي ما يقوله المتقولون عنه ،

ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ،

ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم

مثل قوله تعالى عن النبي [صلى الله عليه وسلم] :

(ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم) . .

وقوله تعالى عن المؤمنين :

إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم .

أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟

ويقول عن أعداء النبي البارزين :

(ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم !) . .

ثم يقول الله سبحانه عن حرب المكذبين عامة :

(فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين) . .

وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين :

يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون

ويضرب لهم أصحاب الجنة - جنة الدنيا - مثلا على عاقبة البطر

تهديدا لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب مالهم من مال وبنين .

وفي نهاية السورة يوصي النبي [صلى الله عليه وسلم] بالصبر الجميل :
(فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت . .) .

ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التثبيت ،

مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب ،

يتولى الله - سبحانه - بذاته حربهم في ذلك الأسلوب العنيف . .

من خلال هذا كله نتبين ملامح تلك الفترة ، فترة الضعف والقلة ،

وفترة المعاناة والشدة ،

وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة

في تلك التربة العنيدة !

كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها

ملامح البيئة التي كانت الدعوة الإسلامية تواجهها .

وهي ملامح فيها سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والمشاعر والاهتمامات والمشكلات على السواء .

نلمح هذه السذاجة في طريقة محاربتهم للدعوة

بقولهم للنبي [صلى الله عليه وسلم] (إنه لمجنون) !
وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة ، وأسلوب

من لايجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان ،

كما يفعل السذج البدائيون .

نلمح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل :

(أم لكم كتاب فيه تدرسون : إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟) . . .
وهي ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني ،

وتفيد في دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ؛
ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وبتلك الجماعة
في أواخر عهد الرسول [صلى الله عليه وسلم]
ومدى ما نقلها من هذه السذاجة في التفكير والتصور والشعور والاهتمام .
كما يتضح في أساليب الخطاب فيما بعد ،
وفي الحقائق والمشاعر والتصورات والاهتمامات
بعد عشرين عاما لا تزيد

قال تعالى :

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10)
هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ (11)
مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)
عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (13)
أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14)
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (15)
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (16)
إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17)

سنسمه على الخرطوم استئناف بياني جوابا لسؤال ينشأ عن الصفات الذميمة التي وصفوا بها أن يسأل السامع : ما جزاء أصحاب هذه الأوصاف من الله على ما أتوه من القبائح والاجتراء على ربهم.

وضمير المفرد الغائب في قوله سنسمه عائد إلى كل حلاف باعتبار لفظه وإن كان معناه الجماعات

والمعنى : سنسم كل هؤلاء على الخراطيم ، وقد علمت آنفا أن ذلك تعريض بمعين بصفة قوله أساطير الأولين وبأنه ذو مال وبنين.

والخرطوم : أريد به الأنف

وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة

فإن الوسم يقتضي التمكن

وكونه في الوجه إذلالا وإهانة ، وكونه على الأنف أشد إذلالا .

والتعبير عن الأنف بالخرطوم تشويه ،

ولقد غلب ذكر الأنف قديما في التعبير عن إظهار العزة في قولهم :

شمخ بأنفه ، وهو أشم الأنف

ولقد عبر قديما عن ظهور الذلة والاستكانة بكسر الأنف ، وجدعه ، ووقوعه في التراب في قولهم : رغم أنفه ، وعلى رغم أنفه

ومعظم المفسرين على أن المعني بهذا الوعيد هو الوليد بن المغيرة

سنسمه عقاباً له (أي الوليد بن المغيرة) على الخرطوم، أي سنجعل له علامة على أنفة تكون له وسماً مدى الحياة (وهي خطُم أنفه،

وقد جرح يوم بدر

فبقي أثر الجرح في انفه بقية عمره)

وعن ابن عباس معنى (سنسمه على الخرطوم) سنخطمه بالسيف قال : وقد خطم الذي نزلت فيه بالسيف يوم بدر فلم يزل مخطوما إلى أن مات

والسبب في ذلك العذاب الذي حدث له :

الذي قال في القرآن (إنه أساطير الأولين) هو الوليد بن المغيرة ،

فهو الذي اختلق هذا البهتان في قصة معلومة ،

فلما تلقف الآخرون منه هذا البهتان وأعجبوا به أخذوا يقولونه فكان جميعهم ممن يقوله ، ولذلك أسند الله إليهم هذا القول في آية

وقالوا أساطير الأولين .

وأن الوليد بن المغيرة لايبذل المال الا في المناسبات ليس من أجل الفقراء ولكن من أجل الوجاهه والسمعه

فكان مناع : شديد المنع . والخير : المال ، أي شحيح ،

والخير من أسماء المال قال تعالى وإنه لحب الخير لشديد

والمراد بمنع الخير : منع المال عمن أسلم من ذويهم وأقاربهم ،

يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه :

من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا ،

وهذه شنشنة عرفوا بها من بعد ،

قال الله تعالى في شأن المنافقين

هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .

وأيضا فمن منع الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة فلا يعطون الضعفاء وإنما يعطون في المجامع والقبائل

قال تعالى ولا تحضون على طعام المسكين .

قيل : كان الوليد بن المغيرة ينفق في الحج في كل حجة عشرين ألفا يطعم أهل منى ممن يأتي للأصنام ، ولا يعطي المسكين درهما واحدا.

وقد يكون منع الخير أي منع الإسلام عن أهله وعشيرته

قال عبد الله بن عباس :﴿مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي: للإسلام، يَمنع ولده وعشيرته عن الإسلام، يقول: لئن دَخل واحدٌ منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدًا

والاعتداء : مبالغة في العدوان فالافتعال فيه للدلالة على الشدة.

والأثيم :كثير الإثم وهو فعيل من أمثلة المبالغة

قال تعالى إن شجرة الزقوم طعام الأثيم

.والمراد بالإثم هنا ما يعد خطيئة وفسادا عند أهل العقول والمروءة

وفي الأديان المعروفة.

والعتل : بضمتين وتشديد اللام اسم وليس بوصف لكنه يتضمن معنى صفة ؛ لأنه مشتق من العتل بفتح فسكون ، وهو الدفع بقوة قال تعالى

خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم

وفسر العتل بالشديد الخلقة ، وبالأكول الشروب ، وبالغشوم الظلوم ، وبالكثير اللحم المختال

وهو على هذا التفسير إتباع لصفةمناع للخير أي يمنع السائل ويدفعه ويغلظ له على نحو قوله تعالى فذلك الذي يدع اليتيم .

ومعنى بعد ذلك علاوة على ما عدد له من الأوصاف هو سيئ الخلقة سيئ المعاملة ، فالبعدية هنا بعدية في الارتقاء في درجات التوصيف المذكور

والزنيم : اللصيق وهو من يكون دعيا في قومه ليس من صريح نسبهم : إما بمغمز في نسبه ، وإما بكونه حليفا في قوم أو مولى ، مأخوذ من

الزنمة بالتحريك وهي قطعة من أذن البعير لا تنزع بل تبقى معلقة بالأذن علامة على كرم البعير . والزنمتان بضعتان في رقاب المعز

قيل أريد بالزنيم الوليد بن المغيرة لأنه ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده. ويطلق الزنيم على من في نسبه غضاضة من قبل الأمهات ،

ومن ذلك قول حسان في هجاء أبي سفيان بن حرب ، قبل إسلام أبي سفيان ، وكانت أمه مولاة خلافا لسائر بني هاشم إذ كانت أمهاتهم من صريح نسب قومهن

وَرَوَاهُ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَوَّاظٌ وَلَا جَعْظَرِيٌّ وَلَا الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ). فَقَالَ رَجُلٌ: مَا الْجَوَّاظُ وَمَا الْجَعْظَرِيُّ وَمَا الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الْجَوَّاظُ الَّذِي جَمَعَ وَمَنَعَ. وَالْجَعْظَرِيُّ الْغَلِيظُ. وَالْعُتُلُّ الزَّنِيمُ الشَّدِيدُ الْخَلْقِ الرَّحِيبُ الْجَوْفِ الْمُصَحَّحُ الْأَكُولُ الشَّرُوبُ الْوَاجِدُ لِلطَّعَامِ الظَّلُومُ لِلنَّاسِ

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ (جَوَّاظٌ وَلَا جَعْظَرِيٌّ وَلَا عُتُلٌّ زَنِيمٌ) سَمِعْتُهُنَّ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْتُ: وَمَا الْجَوَّاظُ؟ قَالَ: الْجَمَّاعُ الْمَنَّاعُ.

قُلْتُ: وَمَا الْجَعْظَرِيُّ؟ قَالَ: الْفَظُّ الْغَلِيظُ.

قُلْتُ: وَمَا الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ؟

قَالَ: الرَّحِيبُ الْجَوْفِ الْوَثِيقِ الْخَلْقِ الْأَكُولُ الشَّرُوبُ الْغَشُومُ الظَّلُومُ.

قُلْتُ: فَهَذَا التَّفْسِيرُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعُتُلِّ قَدْ أَرْبَى عَلَى أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ.

وثيق: عظيم الخلقة

وقال ابن عطيه : العُتُلّ: القويّ البنية، الغليظ الأعضاء، المُصحَّح، القاسي القلب، البعيد الفهم، الأَكُول الشَّروب

عن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد بن جبير- في قوله : ﴿ زَنِيمٍ﴾، قال: هو الرجل يُعرف بالشّرّ؛ كما تُعرف الشاة بزَنَمتها

وكان الوليد بن المغيرة ذا سعة من المال كثير الأبناء وهو المعني بقوله تعالى ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا إلى قوله إن هذا إلا قول البشر .

أدرك الوليد بن المغيرة بعثة الرسول ولم يسلم، بل قال مستنكراً عدم نزول الدعوة عليه هو، وهو كبير قريش: "أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، فنحن عظيما القريتين»، فأنزل الله فيه :﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾) الزخرف

قال. فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال :فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضي، فلما مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال) :تسمعون يا معشر قريب، أما والذي نفس محمَّد بيده لقد جئتكم بالذبح(، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدَّهم فيه وصاة من قبل ذلك ليرفأه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول :انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا، فوالله ما كنت جهولًا.

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10)

هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ (11)

مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)

عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (13)

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14)

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (15)

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (16)

والآيات ١٤ و ١٥ و ١٦ تتحقق في الوليد بن المغيرة

من المعلوم أن ليس المراد بالموصوف بهذه الصفات شخصا بعينه

لما كان كل حيث تعددت الصفات وتقاسم عدد من المشركين في تلك الصفات ويحمل ما جاء في الروايات من أنه

يعني الأخنس بن شريق ؛ في قول الشعبي والسدي وابن إسحاق.
وقيل : الأسود بن عبد يغوث ، أو عبد الرحمن بن الأسود ؛ قاله مجاهد.
وقيل : الوليد بن المغيرة المخزومي ، عرض على النبي صلى الله عليه وسلم مالا وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه ؛ قاله مقاتل

وكان الوليد بن المغيرة دعيا في قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده،

وقال ابن عباس : هو أبو جهل بن هشام. وبالتالي بيان سبب النزول في شخص واحد لم يتفق عليه جميع المفسرين

أي أن كل الصفات السيئة التي أوردها العليم الحكيم عز وجل في الآيات تتعلق بمن تواجدت فيه صفة من تلك الصفات المذكورة في الآيات

وختمت الأوصاف المحذر عن إطاعة أصحابها بوصف التكذيب ليرجع إلى صفة التكذيب التي انتقل الأسلوب منها من قوله فلا تطع المكذبين .

والله تعالى أعلم

عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول ما خلق الله القلم ، ثم قال : اكتب قال : فقال : يا رَبّ ومَا أكْتُبْ ؟

قال : ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل ، أو أجل ، أو رزق ، أو أثر ، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة .

ثم خلق العقل فقال : الجبار : ما خلقت خلقا أعجب إلى منك ، وعزتي وجلالي لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنك فيمن أبغضت ،

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أكمل الناس عقلا

أطوعهم لله

وأعلمهم بطاعته " . [١]